

نظريات فنون الأطفال .. نشأتها وتطورها واتجاهاتها المستقبلية

١/ محمد بن حسين (الضويحي)

أستاذ التربية الفنية (المساعر)

كلية التربية - جامعة الملك سعود

تعد فنون الطفل بعامة ورسومه بخاصة وسيلة هامة من وسائل التعبير، ويرى بعض الكتاب أن "الرسم بالنسبة للطفل لغة، ومعنى ذلك أن الطفل يستخدم الرسم لينقل معاني إلى المتفرج، ويرى بعض الكتاب أن الطفل عندما يستخدم رسمه كلغة، فإنه لا يهتم فيه بالمقومات الجمالية ... فاللغة أصلاً وسيلة لنقل المعرفة والمعاني" (محمود البسيوني، ١٦: ١٩٨٧) بيد أن هناك ما يشبه الاتفاق - في الوقت الراهن - بين الباحثين على أن رسوم الطفل ليست مجرد وسيلة لنقل المعاني فحسب، وإنما هي بالإضافة إلى ذلك فن قائم بذاته يعكس قيمة فنية وجمالية عالية . ويستدلون على ذلك بأن فنانين كبار أمثال بول كلي Klee ، وهنري ماتيس H.Matisse وجوان ميرو J.Mero قد تأثروا بدرجة كبيرة برسوم الأطفال وطرائقهم في التعبير وتنظيم الرموز الشكلية في الفراغ ، وذلك إلى حد أن هناك أسلوباً انتهجه بعض الفنانين في المجال التشكيلي أطلق عليه أسلوب الأطفال Infantiel Style .

وليس ثمة شك في أن لغة التشكيل أو الفن هي من أهم ما يعتمد عليه الطفل في التواصل مع الآخرين، وفي التعبير عن أنفسهم واحتياجاتهم، ومن ثم يمكن التعرف من خلالها على مشكلاتهم، وكذلك اكتشاف مقدراتهم وأساليب تفكيرهم وإدراكهم، وتفاعلهم مع ما يحيط بهم، ومعدلات نموهم العقلي والوجداني والاجتماعي، كما تعكس إلى حد كبير الطرق التي يستجيبون بها للبيئة التي يعيشون فيها، والكيفية التي يعيدون وفقاً لها تنظيم هذه البيئة من خلال تعبيراتهم الفنية .

مشكلة البحث :

توصل الباحثون إلى عدد من النظريات الخاصة بفنون الأطفال عموماً ورسومهم خصوصاً ، وقد تنوعت هذه النظريات وتعددت لتشمل مختلف مظاهر التعبير الفني لدى الطفل، وكيف ينمو ويتطور وفقاً لمراحل محددة،

ورصدت سمات وخصائص معينة لكل مرحلة، كما تناولت عديداً من القضايا المرتبطة بالتعبير لدى الطفل؛ كالذكاء والإبداع والإدراك والمجال الإدراكي، والرموز والتعلم البصرى Visual Learning، والخبرة والثقافة والبيئة .. وغيرها . وقد أسهمت هذه النظريات فى إلقاء الضوء على الكيفية التى يستجيب بها النشء للبيئة المحيطة بهم حينما يعبرون بالرسم عن هذه الاستجابات .

وقد ظلت هذه النظريات مفرقة ، ولم يتم جمعها فى إطار متكامل، كما قبل المعلمون فى أزمنة مختلفة نظريات معينة كقضايا مسلم بها ، وكيفوا أساليبهم فى التدريب طبقاً لهذه النظريات" (لطفى زكى، ١٩٧٢:٥) كما عانينا كثيراً من بعض هذه النظريات التى "اعتنقها كثير من المدرسين ، وكانت النتيجة أن كثيراً من ميول الدارسين وحبهم للفن قد قضى عليها بالفناء" (لطفى زكى، ١٩٧٢:٣٣) فقد حصرت بعض هذه النظريات مهمة الطفل فى مجرد التقليد والنقل الحرفى المباشر لبعض نماذج من رسوم الكبار أو النماذج المصنوعة أو الطبيعية دون أى تصرف، فقيدته وأوصدت أمامه كل أبواب التعبير عن نفسه وأخمدت فيه جذوة الإبداع .

وقد جاء تناول هذه النظريات فى معظم المؤلفات العربية ضمن موضوعات شتى عالجا كل كاتب بشكل ضمنى فى سياق تناوله لقضايا فنون الأطفال، وبشكل موجز دون التعرض لطبيعة الظروف التى نشأت فى سياقها، وللطريقة التى تكونت بها، وتبدو الحاجة ماسة إلى حصر هذه النظريات وترتيبها تاريخياً، والتأريخ لها ولأعلامها ، وتحليل معطيات كل منها .

ونتمثل مشكلة البحث الراهن فى محاولة الإجابة على التساؤلات التالية :

- ١- كيف بدأ الاهتمام بفنون الأطفال ، وما علاقة ذلك بحركة دراسة الطفل ؟
- ٢- ما هى النظريات التى تناولت فنون الأطفال بعامة ورسومهم بخاصة، وما أهم المعالم الرئيسة لكل منها ؟
- ٣- ما هى أهم التوجهات المستقبلية لأبحاث فنون الأطفال ؟

أهداف البحث :

يهدف البحث الحالى إلى ما يلى :

- ١- رصد الإرهاصات الأولى لحركة دراسة الطفل، وعلاقة ذلك ببدء الاهتمام على المستويين الفني والتربوي بفنون الأطفال .
- ٢- تتبع النظريات المختلفة التى تناولت فنون الأطفال، وعرض أهم معالم كل منها ، ومحاولة جمعها فى منظومة واحدة .
- ٣- التعرف على المصادر الرئيسة لهذه النظريات ، وتوضيح جهود الرواد الأوائل والمحدثون الذين وضعوا هذه النظريات وقدموا الأفكار الأساسية التى أثرت فى مراحل تطور الفكر التربوي فى مجال التربية الفنية ولا سيما ما يتعلق منه بتناول فنون الأطفال .
- ٤- مناقشة معطيات هذه النظريات، وتحديد أهم التوجهات المستقبلية لبحوث فنون الأطفال .

أهمية البحث :

على الرغم من تعدد الأبحاث التى تناولت فنون الأطفال ، ووجود عدد من النظريات المتعلقة بها ، والتأثير البالغ لهذه النظريات فى تطور طرق تدريس التربية الفنية للأطفال، فإنه لا توجد دراسة عربية - فى حدود علم الباحث - عنيت بمتابعة تطورها وجمعها فى إطار متكامل وتيسيرها للعلملين والدارسين فى حقل التربية الفنية ، وتحليلها بهدف الكشف عن جوانب الاتفاق والاختلاف فيما بينها ، وهو ما يحقق الإفادة القصوى مما بكل منها من إيجابيات، سواء بالنسبة للمعلمين أم الباحثين فى تعاملهم مع الأطفال، وتحقيق المزيد من تفعيل لعملية التربية عن طريق الفن فى مؤسساتنا التعليمية المختلفة .

مصطلحات البحث :

١- الفنون :

قد قسمت الفنون منذ القدم إلى قسمين أساسيين هما :

الفنون الجميلة Fine arts ، والفنون التطبيقية Applied arts ، ويشير المصطلح الأول إلى تلك الفنون التى يبدعها الفنان من أجل قيمها الجميلة كالنصوير التشكيلي ونحوه ، أما المصطلح الثانى فيشير إلى الفنون التى يتم

إنتاجها للاستخدام بجانب القيم الجمالية . ومن ذلك أشغال الفخار والخزف والنسيج والأثاث ونحوه .

وهناك تقسيمات أخرى بحسب الفئات النوعية للفنون وهي :

الفنون البصرية Visual arts ، والفنون الأدائية Performing arts ، والفنون السمعية Auditory arts .

وفى هذا البحث سوف يقتصر الباحث على التعرض للفنون البصرية Visual art وسوف يقتصر منها على التصوير التشكيلي والرسم فقط .

٢- فنون الأطفال :

تشمل فنون الأطفال من الزاوية التشكيلية كل ما يمارسه الطفل من أنشطة فنية وما ينتجه من منتجات ذات بعدين ؛ كالرسوم ، أو ذات ثلاثة أبعاد ؛ كالتشكيلات المجسمة ومن بينها النحت ، والأشغال الفنية، والدمى.. وغيرها ، وذلك باستخدام مختلف المواد والخامات والأدوات .

ويقتصر البحث الحالي على تناول مجالى الرسم والتصوير دون بقية المجالات الفنية لفنون الأطفال .

٣- الطفل :

يتحدد مفهوم الطفل فى هذا البحث بكل من تنحصر أعمارهم الزمنية بين عامين وثمانية عشر عاما .

منهج البحث :

يقوم البحث على استخدام المنهج التحليلي Analytical فى الوصول إلى الإجابات المناسبة على الأسئلة السابق عرضها من خلال تحليل البيانات المتضمنة فى المصادر الأصلية الخاصة بنظريات فنون الأطفال، ونتائج البحوث المتصلة بهذا الموضوع ، واستخلاص المعلومات اللازمة .

حركة دراسة الطفل ، وبداية التعرف على فنون الأطفال :

ظل الطفل بعيداً عن دائرة الاهتمام فى مجال الدراسات المتعلقة بالجوانب المعرفية عامة ، والجوانب الفنية خاصة ن حتى أواسط القرن الثامن عشر .

وكانت أول كتابة منظمة عن الطفل هي تلك التي كتبها جان جاك روسو* Jean Jacques Rousseau فهو أول مفكر ينظر إلى الطفل بوصفه "فرداً من أفراد المجتمع لكنه في حالة نمو وتغير ، ولا ينبغي أن ينظر الناس إليه وكأنه راشد صغير أو مصغر رجل" (محمود البسيوني، ١٩٨٧ : ٢٥) .

ولم يكتف بالإشارة إلى أن الطفل فرد خاص ويجب أن يعامل معاملة خاصة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فحدد مراحل نمو الطفل ومراحل النضوج Maturation Stages لديه .

وقد نتبع في نظريته عن الأطفال ، تاريخ تطور الإنسان ، فالطفل حسب هذه النظرية يمر بأربع مراحل وهي :

- المرحلة الحيوانية Animal Stage . ورأى أن هذه المرحلة تستمر منذ ميلاد الطفل وحتى يبلغ الخامسة من عمره .
- مرحلة الوحشية Savage Stage وتستمر هذه المرحلة من بعد سن الخامسة وحتى سن الثانية عشر .
- مرحلة العقل Rational Stage وتستمر هذه المرحلة من بعد سن الثانية عشر وحتى مرحلة البلوغ Puberty .
- المرحلة الاجتماعية Social Stage وتستمر من مرحلة البلوغ وحتى يكبر الطفل ويكون راشداً Adult .

ولم يقف روسو عند هذا الحد ، بل تعداه وخطط لطريقة تدريس الفنون للأطفال، وأوضح دور المعلم ، في التدريس، فجعل المعلم يقول : "سوف أتتبع طريقته - أي طريقة الطفل وأسلوبه - في مسك القلم" . وسوف استخدمه بنفس الطريقة الرديئة التي استخدمه بها تلميذى الصغير، وسوف أتتبع خطواته، وقد أتقدم أكثر منه بقليل حتى يمكن أن يلحق بى أو يسبقنى دون عناء . وسوف نقوم بالتلوين، والتشكيل (بالطين أو الجص) . لكن فى تلك الأنشطة لن ننسى مراقبة الطبيعة" (Rousseau, 1964: 134)

* من أشهر الكتاب الفرنسيين الذين عاشوا فى القرن الثامن عشر، فقد عاش فى الفترة ما بين ١٧١٢م و١٧٧٨م. وقد أثرت آراؤه كثيراً فى تطور الفكر الفرنسى. وهو مؤسس الديمقراطية الحديثة .

ويستطرد بعد ذلك ليوضح أننا إذا جعلنا التلميذ يرى ما تنتجه الطبيعة، وما يقدمه الفن، وإذا نجحنا في استشارة حب الاستطلاع لديه، وتتبع ميوله فيمكننا أن ندرس ذوقه، وميوله الطبيعية ونكتشف الشرارة الأولى التي تنبئ بعبقريته .

وقد أثرت آراء روسو هذه عن الطفل وفنونه على كتابات الفلاسفة والأدباء الذين أتوا بعده . وخاصة الفلاسفة الرومانسيين أمثال شيلر Schiller وبليك Blake وويردز ويرث Wardsworth وكولردج Coleridge .

ولم يقف تأثيره على الفلاسفة والأدباء بل تعداهم إلى المصلحين التربويين، فظهرت في أوروبا حركة دراسة الطفل التي فتحت المجال واسعا أمام المنظرين في المجال التربوي . وانطلقت بعد ذلك النظريات في دراسة الأطفال ودراسة فنونهم .

انتشرت آراء روسو، وتبعها عدد كبير من المفكرين لاحقاً، وتعددت الدراسات عن التربية وعن الطفل خاصة نتيجة للتطورات الكبيرة التي حدثت في جميع الجوانب الثقافية والاجتماعية وقد تزامنت كلها فازدهرت الحياة الفكرية والتربوية . وظهر عدة علماء أثروا تأثيراً واضحاً في النظريات التربوية ، لا سيما تلك التي تتعلق بالطفل ونموه، وطرائق تفكيره الكيفية التي تتكون بها مقدراته الإدراكية والفكرية، ومقدراته الحركية .

وقد تضافرت عدة علوم معاً لتجعل المجال التربوي عميقاً، وتجعل لنظريات دراسة الطفل أبعاداً واسعة المدى . فتجمعت معطيات الفلسفة، مع معطيات علم النفس مع معطيات علم الإنسان (الأنثروبولوجي) * واكتشف العلماء ضرورة تضافر هذه المجالات حتى تكتمل الثقافة، ويصبح المشروع الثقافي سليماً . قال هيربرت سبنسر Herbert Spencer في مقالة له نشرها عام ١٨٥٠م "ليس من الممكن لمشروع ثقافي أن يكون متقناً، لا في المحتوى ولا في الشكل إلا بعد تأسيس علم النفس العقلي أو الإدراكي" . (Horwits, 1967:3)

ولم يقف نشاط سبنسر الفكري على التركيز على علماء النفس بل دعا علماء الطبيعة، والإحصاء، إضافة إلى علماء الإنسان والنفس وكانت النتيجة أن نشأت حركة دراسة الطفل Child Study Movement . وأصبح المعلمون يميلون للنظرة العلمية بعد تعرفهم على تلك العلوم وآثارها وارتباطها بالتربية.

* يفضل الباحث مصطلح "علم الإنسان" أو "علم السلالات" على مصطلح الأنثروبولوجي فالكلمة الأخيرة معربة ومكونة من مقطعين entrophe وهو الإنسان والمقطع الثاني ology وهم علم . ولهذا فسوف يلتزم الباحث بالترجمة بدلاً من التعريب .

وازدهرت دراسة الطفل، وتوسعت مجالات الدراسة، فانطلق بعض العلماء ليجري أبحاثاً وينشئ نظريات عن الأطفال فرادى، كما درس بعضهم الأطفال فى شكل مجموعات، أو أعداد كبيرة .

وحتى الذين درسوا الأطفال فى شكل جماعات ، انقسموا إلى قسمين أساسيين :

اختار القسم الأول أن يدرس الأطفال مسترشداً بأساليب ومعطيات علم الإنسان أو علم السلالات (الأنثروبولوجيا) فشملت دراساتهم قياسات وتعداد الدراسات الثلاثية الأبعاد التى تشمل السمات البدنية للأطفال ، وألوان سحنهم، وألوان الشعر لديهم ، كما اشتملت درجة النمو لدى الأطفال مقارنة بالصحة ، وبالأزمن أى الفصل من فصول السنة .

أما القسم الثانى فقد اختار انتهاج مناهج علم النفس وأساليبه فشملت دراساتهم النفسية عدة مجالات منها :

١- دراسات فى الميدان الحسى كدراسة اللمس ، والنظر ، والشم ، والذوق والسمع .

٢- دراسات فى الإدراك : وتناولت هذه الدراسات العمليات الفكرية ، وأجراء اختبارات ودراسات مسحية للذاكرة ، وللتخيل ، والتصور عن الذات Sense of Self ، والأفكار الأخلاقية والدينية ، والذخيرة اللغوية وكذب الأطفال وما إلى ذلك .

٣- دراسات فى ميدان الحركة : وشملت دراسات الحركة هذه أو التى يطلق عليها مصطلح Motor Skills العمل اليدوى واللعب ، وأهميته لدى الأطفال ، ومدى النشاط الحركى ، وأوقات ردود الفعل عند الأطفال والجوانب الجسمية للغة ، ونحو ذلك .

وقد تداخلت هذه الدراسات عند تطبيقها على الأطفال . فقياس الأجسام على سبيل المثال من تخصص علم الإنسان أو السلالات ، غير أنها فى الوقت نفسه تعد من تخصصات علم النفس الوراثى . وكان لهذا التداخل والتمزج بين العلوم أثر طيب فى إثراء الجانب التربوى ، وفى تعميق نظريات فنون الأطفال .

نظريات فنون الأطفال :

١- النظرية التطبيقية : أو نظرية حيوية الفن فى طبيعة الطفل :

Child art as a Vital Part of Child Nature

ظهرت هذه النظرية خلال القرن التاسع عشر (١٨٨٥م) وقد وضعها كلى من ايبنسر كوك Ebeneser Cooke وجيمس سوللى James Sally وتوماس أولوت Thomas Ablett . وتبنى هذه النظرية على أساس أن الفن تصوير للجمال فى الطبيعة، وتعبير عنه، وأن مصدر الفن هو الإلهام الجمالى . وتقرن هذه النظرية بين التعبير عن الفن بصرياً ، وتعلم اللغة، فالطفل فى سنواته الأولى يعبر بطريقة تلقائية، والمعرفة الفنية لديه تتكون عن طريق التقليد . وقد تأثرت هذه النظرية بأفكار اسبنسر Spencer الذى يرى أن هذه العملية (المعرفية) لها ثلاثة جوانب.

فالممتعة تتزامن مع المؤثر الخارجى، ومع أنشطة الإدراك ومع الترابطات المتعددة مع الأفكار والمشاعر الناتجة عن خبرات الطفل السابقة . وتعزز الوسيلة البصرية Visual media التطبيقات التقنية والعناصر الجمالية للتعبير . وقد أثبت سوللى Sally - وهو من مؤسسى هذه النظرية - ذلك بقوله : "من الواضح أن تطبيق عملية طويلة كهذه يستدعى تنظيماً دقيقاً يربط بين الفن والعقل واليد . لأن أغلب التنظيمات اليدوية تكون وقتية ولا شعورية . وفى الوقت نفسه فإن العملية تتطلب تركيزاً عالياً . فإذا لم نضع التصميم الأساس أمامنا ونعمل على نقله خطوة بخطوة فإننا سوف نقع لا شك فى الخطأ" . (Sully, 1895 : 19)

ويؤكد ايبنزر كوك Ebeneser Cooke وهو المؤسس الثانى لهذه النظرية ضرورة تمرين الطفل على نقل الطبيعة ونقل الأشياء كما هى وذلك بقوله : "إن رسم الأشياء (الطبيعية الصامتة) يقوى التدريب على الملاحظة، غير أن الخيال أيضاً مهم ... " (Cooke, 1885 : 20) .

وتؤكد هذه النظرية على أن الطفل عندما يسعى إلى تحقيق ما يسعده فإنه يرى فى نفسه أنشطة ذاتية كالتعبير عن الذات من خلال الأنشطة الفنية، ويحصل فى النهاية على شعور عميق بالرضا، وبالسمو والجمال .

ولكى نحقق هذه الأهداف لدى الطفل، فمن الضروري على المعلم أن يراقبه بصمت، وأن يدرس ما يقول به ويتعلم منه، وأن يقدم له فنا ملهما حتى يتأثر به، كما أن عليه أن يلفت انتباهه إلى روائع الطبيعة وجمالها خارج غرفة الدرس . ويلخص أصحاب هذه النظرية دور المعلم في نقطتين هما :

١- مساعدة الطفل على عمل الصور .

٢- تدريب الخيال والذكاء من خلال الذاكرة البصرية .

٣- النظرية الجمالية / فن الطفل أسلوب جمالي خالص

Child Art as Pure Aesthetic Style

واضع هذه النظرية هو فرانز تشزك Frans Cizek ، وهو أول من قال إن رسوم الأطفال تعد فنونا كاملة أو قائمة في حد ذاتها مستقلة عن فنون البالغين والكبار، لها قيمها الجمالية الخاصة وقد كانت فنون الأطفال تعد، حتى عصره، مجرد خريشات أو "شخبطات"، ولا يهتم بها الناس، وقد ينظرون إليها لمجرد التندر والسخرية والضحك ومن الظروف التي ساعدت على تقبل أفكاره، وتأييد هذه النظرية، الاتساع في مجالات الاكتشافات العلمية في مجال علم النفس وفي مجالات التاريخ وعلم الإنسان أو السلالات .

فمن مجال التاريخ استقى فكرة أن فنون الإنسان الأول لها سمات بسيطة، ومن علوم الإنسان والجغرافيا استقى أن فنون بعض الشعوب التي تعيش في بيئات تقليدية، وتعيش حياة أقرب إلى حياة الإنسان القديم ، تنتج فنا له مميزات خاصة، وهو فن بسيط يتسم بالتلقائية والعفوية، تربطه بعض الروابط بفنون الأطفال . فعندما اعترف الناس بجماليات تلك الفنون، كان لابد أن يعترفوا بجماليات فنون الأطفال . ومن هنا حصلت النظرية على تأييد العلماء والتربويين . وأصبحوا ينظرون إلى فن الطفل بوصفه فنا مستقلا وليس فنا مرحليا يتطور لينتج منه فن الكبار أو الراشدين .

تقول نظرية فرانز تشزك إن لفن الطفل قواعده الخاصة وأن الطفل ينتج فنا له مميزات خاصة خلال كل مرحلة من المراحل التي يمر بها . وقال إن فن الطفل يمر بعدة مراحل متداخلة غير منفصلة عن بعضها البعض وعلى النحو التالي :

١- حالة الطفولة الحقة Real Infantile State وقسمها بدورها إلى ثلاثة مراحل هي :

أ-الخربشة Scribbling وتستمر من سن الثامنة عشر شهراً من عمر الطفل حتى بلوغه العامين، وهي ذات أهمية فائقة للطفل ونموه، بدءاً من تنشيط نموه العضلي وانتهاء بتمكينه من التعبير عن نفسه والأشياء من حوله، وغالباً ما يمارس الطفل الشخبطة دون هدف محدد مطلقاً العنان لخياله، ثم يكتشف بعض المعاني في خطوطه .

ب-المرحلة الإيقاعية (إيقاع الروح واليد) Rhythm of Spirit and Hand وإعادة الألوان ، والخطوط والحركة ، ويجد خلالها الطفل متعة كبيرة في تكرير الخطوط والأشكال والألوان .

ج-المرحلة الرمزية التجريدية : وتوصف هذه المرحلة مثل المرحلتين أ و ب بالنقاء الطفولي والحيوية .

يأخذ الطفل بعد المراحل الثلاث السابقة - نتيجة تراكم الخبرة وزيادة المعرفة- في الاقتراب من الطبيعة والواقع، ويقل اعتماده على الخيال، وتزداد التفاصيل المميزة للأشكال في رسومه ، وينزع إلى الزخرفة، ويمثل ذلك من وجهة نظر تشرك بداية الاضمحلال في فن الطفل . وتتمثل المراحل التالية فيما يلي :

٢- بداية تشكيل الأنماط Formation of Types .

٣- إدخال بعض الخواص من الخبرة، مثل التصوير الطبيعي (الواقعي)، والمتعارف عليه، والتصوير الخيالي .

٤- مرحلة التفرقة بين الاتجاه، واللون والحجم والفراغ .

٥- مرحلة الوحدة الخالصة Pure Unity في تحديد الأشكال والأحجام .

٦- مرحلة التدهور نحو فن المراهقة والذي يتزامن مع فترة البلوغ . (Viola, 1942 : 25) .

ومن أهم ما نادى به تشرك "إن لكل طفل قانونه ونظامه الخاص به ويجب أن يترك ليطور وينمي هذا الأسلوب . ولا ينبغي أن يتعرض أى طفل لذلك النظام الجاف الجامد الذى تدرس وفقاً له مقررات التعليم الفنى (Technical Education) كما لا ينبغي فرض آراء الكبار وطرقهم وأساليبهم

على الأطفال، بل ينبغي أن يختار الأطفال خاماتهم التي يعبرون ويبدعون بها. ويجب أن يتركوا ليتطوروا بأنفسهم بما يختارونه من خامات، ولا يجب محاولة الإسراع بتطورهم لا تباع قوانين الكبار الفنية وأفكارهم . ولا ينبغي السخرية من أعمالهم أو نقدها بطرق غير واعية ولا يجب أن نهتم بالجانب المهارى على حساب الأفكار الإبداعية لدى الأطفال". (Tomlinson, 1947:20).

ولقد تضمنت الأفكار النظرية لتشرك عدة مبادئ منها "ضرورة إتاحة الحرية المطلقة للطفل فى التعبير ليرسم ما يشاء، ويبدع ما يرغب، وأن الأطفال لهم نظمهم وقوانينهم الخاصة فى التعبير، كما أن لهم شخصياتهم واستعداداتهم الإبداعية، بيد أن هذه الإستعدادات تأخذ فى التدهور نتيجة تدخل الكبار فى تعبيرات الطفل، وفرضهم قيوداً مثل محاكاة الطبيعة وتقليدها، فيغفلون بذلك شخصيته وذاتيته فى التعبير الفنى". (عبد المطلب القريطى، ٢٠٠١: ٦٠).

وقارن تشرك عملية النمو الفنى للطفل باللعب . فالعملية الفنية فى نظره مثل اللعب تماماً حيث يتمكن الطفل من السيطرة على تعبيره الذاتى من خلال التكرار وإعادة والاكتشاف للأشكال الفنية الجديدة .

٣- النظرية الإبداعية العلمية الاجتماعية فى فنون الأطفال :

Child Art as Creative Scientific Unquiet and Social Movement

وقد وضع هذه النظرية الفيلسوف جون ديوى * John Dewey . ويلاحظ أنه قد جمع عدة مصطلحات فى عنوانه وهى تشمل "الإبداع" و"الاجتماع" و"العلم" و"البحث" Inquiry . ويعود هذا لأن الحياة مترابطة لا شئ فيها يكون مفصلاً عن غيره ... "فالكيفيات الحسية، سواء أكانت للمس، أم الذوق، أم البصر، أم السمع ، تنطوى على صبغة جمالية . ولكنها لا تنطوى على هذه الصبغة الجمالية على انفراد ، بل من حيث هى مترابطة ، أعنى أنها ليست موجودات مجردة، منفصلة، بل هى عناصر متداخلة متفاعلة . فضلاً عن ذلك فإن العلاقات ليست مقصورة على أنواعها الخاصة، بحيث تكون الألوان

* جون ديوى John Dewey درس الفلسفة وبعد تخرجه عام ١٨٧٩م نشر أول بحث فلسفى له . حصل على دكتوراه الفلسفة عام ١٨٨٤م من جامعة جون هو بكينز . قاد ثورة "التربية التقدمية" من جامعة شيكاغو أثناء عمله بها . وأنشأ مدرسة تجريبية لتطبيق نظرياته الجديدة . وانتقل للعمل بجامعة كولمبيا- نيويورك من عام ١٩٠٤م وإلى بلوغه سن المعاش عام ١٩٤٠م . توفى عام ١٩٥٢م .

مع الألوان، والأصوات مع الأصوات بل إن أقصى ما وصل إليه الضبط العلمى لم ينجح فى الحصول على لون "نقى" أو طيف خالص من الألوان". (جون ديوى، ١٩٦٣: ٢٠٢-٢٠٣).

تقول نظرية ديوى إن الطفل يتعلم بواسطة مواقف طبيعية ومعقده، وإن الخبرة الفنية Art Experience تمده بنظام طبيعى لكى يعرف ويعمل. وأنه يفهم أنواع الفنون ويعبر عنها بتلقائية وكل طفل يفعل ذلك من خلال اهتمامات خاصة، ويسرعات تختلف من طفل إلى آخر. فالواقع الاجتماعى، وحب الاستطلاع الشخصى، تزيد القدرات التعبيرية والاتصالية والإنسانية والتجريبية. والطفل كما يرى ديوى: "هو العنصر الرئيسى فى العملية الفنية، غير أن الذى يمر به مهم بنفس الدرجة. وأن ما يحدث كنتيجة للعملية الفنية يكون فى غاية الأهمية له والمجتمع". (Dewey, 1935:62)

وتركز هذه النظرية على أهمية الفن للأطفال، وترى أن الفن يمد الأطفال بخبرات عديدة، وأن هذه الخبرات الفنية هى جزء من الحياة اليومية، وأن الأحاسيس والصور، والأفكار تكون شريطاً متصلاً من الوعى.

٤- نظرية فنون الأطفال للتذوق والتكوين الفنى:

Child Art as Art Appreciation and Composition

واضع هذه النظرية ويزلى داو Wesley Dow. وتقوم تلك النظرية على أساس أن التذوق الفنى، وفهم الكيفية التى تجمع بها عناصر الفن وأسس عمله التكوين Composition هى روح الجمال، وأن "الفهم الأفضل لأهمية الفنون فى حياتنا يقتضى الاعتراف بالقوى الإبداعية بوصفها موهبة تحفز روح كل إنسان، وتبدو لأول وهلة فى تلك الصورة التى نسميها: التذوق الفنى". (Dow, 1941:1)

وترى هذه النظرية أن الطفل ينبغى أن يعلم طرق تنظيم العناصر الشكلية للفن، وطرق التعبير عن الجمال، لا مجرد النقل من الأشكال الطبيعية ومحاكاتها، ولا بد أن يدرس الطفل أعمال الفنانين الكبار*، ليتعلم منها أصول التنظيم والتكوين.

* ويقصد بالفنانين الكبار فناني عصر النهضة خاصة، أمثال ليوناردو دافنشى وروفانيل، ومايكل انجلو.

وتهدف هذه النظرية إلى تقوية عزيمة الطفل ، واعتماده على نفسه، لا على عوامل خارجية . فبالتوجيه القوى فإن فهم التذوق الفنى سوف يعزز من قوة الطفل . وقد أكد على أهمية المشاعر الخاصة والطرق الفريدة الجديدة للتعبير عن الأفكار من خلال الفن .

ويرى صاحب النظرية إن أول خطوة لتحقيق التكوين هى الانسجام Harmony والخطوات التالية تليها حتى يصل الطفل إلى التكوين الكامل . وفى تتبعها تدريب لعقل الطفل .

٥- نظرية التصور العقلى :

أو نظرية الفن والتصور العقلى : Child Art as Mental Imagery ويعود تأسيس هذه النظرية إلى كل من ماريان ريتشارد سون Marian Richardson ورود جر فراى Rodger Fry . ويرى أصحاب هذه النظرية إن طبيعة الفن متأصلة فى الإنسان وأن الصور الذهنية هى مادة التعبير الذاتى . وبما أن الأطفال يمكن أن يعبروا عن أفكارهم فإنهم فنانون ، وأن أعمالهم أعمال جمالية، فالعملية الفنية تتطور من تصورات الفن الداخلية Intre-eye من إدراك الأشياء الخارجية بالعين الحقيقية Physical-eye . ورغم ذلك فإن الملاحظة ومهارات التذكر تعزز تطور الصور الذهنية، كما يعززه أيضاً التعبير عن المشاعر والعواطف . تقول ماريان ريتشاردسون "إن ما يضعه الطفل على الورق فى الصورة الأولى التى رسمها يعنى بالنسبة لنا مجرد خريشة، أما بالنسبة له فإنه عمل واضح ومكتمل . أنه لا يرى ما هناك، لأنه ينظر إلى فكرته لا إلى رسمته" . (Richardson, 1948:56) .

ولتقوية الخيال فقد ابتدع مؤسسو هذه النظرية، طريقة الفن المغلقة (The Shut-eye) فى التعلم، حيث تعرض الأشياء لفترة أمام الأطفال، ثم تبعد عنهم ليرسموها من الذاكرة . وهذه العملية تطور فى الأطفال كلا من : مهارات الملاحظة لدى الطفل ، وتدريب الذاكرة وتقويتها . وحفز الجانب الإبداعي لدى الطفل .

٦- النظرية المعرفية : Child Art as Cognitive Measurement

تعود فكرة هذه النظرية إلى كل من فلورانس جود انف Florence Goodenough ودیل هاريس Dale Harris ، وتختلف تلك النظرية عن سابقتها

فى أنها لا تنتظر إلى رسوم الأطفال بوصفها أعمالاً فنية، وإنما تراها انعكاسات للتطور والنمو المعرفى Reflections of Cognitive Development فصور الأطفال تمثل تكوينات وتمثيلات معرفية لا جماليات نابغة من دواخلهم. والفن شئ معقد، وتصوير واقعى ينتج من ذهن ناضج .

إن رسومات الأطفال من وجهة النظرية المعرفية ليست أعمالاً فنية، ولكنها مهمة جداً بوصفها مؤشر لتحديد النمو العقلى المعرفى لأن "...رسوم الأطفال الصغار ما هى إلا لغة، وهى شكل من أشكال التعبير العقلى، وهدفها ليس هدفاً جمالياً ، فالطفل يرسم ما يعرفه لا ما يراه من أشياء". (Goodenough, 1926:111)

ويرى أصحاب هذه النظرية أن الرسومات التى يرسمها الطفل تتبنى وتدل على مفهومه عن الشئ المرسوم، وأنه لا يمارس الرسم باعتباره نشاطاً فنياً، وإنما باعتباره لونا من النشاط المعرفى، "وقد رأت جودإنف منذ البداية أن تركز جهودها على دراسة مدى دقة الطفل فى الملاحظة، وارتقاء تفكيره المجرد من خلال الرسم، وليس على تقدير القيمة الجمالية والمهارات الفنية فى رسم الطفل، وأكدت أن رسوم الأطفال ذات أصول ومنابع عقلية أكثر من كونها ذات منابع جمالية". (عبد المطلب القريطى ، ٢٠٠١: ١٨٢)

يؤكد ذلك ما ذهب إليه ديل هاريس من "إن رسوم الأشياء مبنية على مفاهيم، والمفاهيم مبنية على التجربة مع الأشياء. فالخبرة تزيد مظاهر الأشياء التى يتم التفاعل معها، ويتم فهمها، وتحتويها الرسوم . والعلاقة بينها تفهم بوضوح . وهكذا الأمر مع الخبرة، فإن عدداً كبيراً من المظاهر الثابتة، والمجردة يتم فهمهما واستخدامهما فى الرسوم .." (Harris, 1963:195)

وقد صنفت جود انف عملية الرسم إلى ثمان مجموعات من المفاهيم العقلية وهى :

- ١- الربط بالتشابه .
- ٢- تحليل الشكل إلى الأجزاء المكونة .
- ٣- تقييم هذه الأجزاء .
- ٤- تحليل العلاقات الفراغية، والوضع النسبى .
- ٥- الحكم على العلاقات المكانية ، والنسب المتعلقة بالموضوع .
- ٦- عملية تحديد أكثر .
- ٧- تأزر حركة العين واليد .
- ٨- التكيف .

وواضح أن رسوم الطفل من تلك الزاوية التي نتحدث عنها جود انف تقوم على أساس واقعي . فالنمو المعرفي يتم الحكم عليه بمقدار ما في عمل الأطفال من تفاصيل . وقد تتبع واضعوا هذه النظرية ومؤيدوها تطور رسوم الأطفال خلال مراحل عمرهم الزمني ليؤكدوا ويثبتوا صدق نظريتهم، ورأوا أن الانتقال التدريجي من مرحلة إلى أخرى تشير بدرجة ما إلى مستوى محدد من مستويات الذكاء، "كأنما تتطلب كل مرحلة جديدة فيها درجة أعلى من النمو العقلي، فمع المزيد من النضج تتحسن المقدرة على التعداد، والتناسب، ومعرفة المواقع أو غيرها من المقدرات ، وبذلك يمكن أن تؤخذ مظاهر هذه المهارات في الرسوم كمؤشرات على درجات النمو العقلي" (نعيم عطية، ١٩٨٢: ٤٧) .

ولقد بنى استخدام الرسوم كوسيلة لقياس الذكاء على أساس هذه النظرية وقد تمخض ذلك عن وضع جود انف لاختبارها "رسم الرجل" ١٩٢٥ الذي تم تطويره بعد ذلك عن طريق ديل هاريس وإدخال بعض التعديلات عليه (١٩٦٣) .

٧- نظرية الحساسية والانسجام: Child Art as Sensitivity and Harmony

وضع هذه النظرية هيربرت ريد Herbert Read الفيلسوف والمربي الإنجليزي المعروف . وقد استفاد من النظريات السابقة له في مجال علم النفس مثل نظرية الجشطالت Gestalt، وقد صنف أنماط التعبير لدى الأطفال إلى ثمانية أنواع وهي :

- ١- التعدادي Enumerative .
- ٢- العضوي Organic .
- ٣- الزخرفي Decorative .
- ٤- التخيلي Imaginative .
- ٥- التأكيدي Emphatic .
- ٦- الحسي التعبيري Expressionist Haptic .
- ٧- الشكل الإيقاعي Rhythmic Pattern .
- ٨- البنائي Structural Form .

وأوضح أن هذه المجموعات لا تكون في الغالب واضحة الحدود، إنما تتداخل مع بعضها ، وقد ذهب ريد إلى أن فنون الأطفال تمر بسبعة مراحل وفقاً لما اقترحه سيرل بيرت هي :

- ١- مرحلة الخربشة Scribble Stage .

- ٢- مرحلة الخط Line Stage وتمتد من ٢-٥ أعوام .
- ٣- مرحلة الرمزية الوصفية ٥-٦ أعوام Descriptive Symbolism .
- ٤- مرحلة الواقعية الوصفية ٧-٨ أعوام Descriptive Realism .
- ٥- مرحلة الواقعية البصرية ٩-١٠ أعوام Visual Realism . وهى مقسمة إلى قسمين، وهما :
 - أ- مرحلة البعدين Two - Dimension phase .
 - ب- مرحلة الأبعاد الثلاثة Three Dimensional Phase .
- ٦- مرحلة الكبت ١١-١٤ عام Repression Stage .
- ٧- مرحلة الانتعاش (بواكير المراهقة) Artistic Revival .

وأكد هيربرت ريد على وحدة الانسجام بين الفرد والمجتمع وقال إن معنى التعبير بالنسبة للفرد يستدعى ثلاثة أنشطة وهى : التعبير عن الذات، والملاحظة، والتقدير . والفن عنده هو العملية العامة التى يحقق بها الفرد الانسجام بين عالمه الذاتى الداخلى، والنظام الاجتماعى الذى يعيش فيه، وأكد على أهمية الحساسية للمحافظة على الحضارة . ومن ثم أكد على التربية عن طريق الفن Education Through Art بمعنى استخدام الفن كوسيط لتحقيق غايات التربية ، ويقول هيربرت ريد "لقد ذكرت القارئ من قبل بأهمية الإحساس والشعور فى زمن يمارس الوحشية ويوصى بالمثالية . وقد كونت نظرية تحاول أن توضح أنه إذا راينا فى تربيتنا لأطفالنا أن نحافظ بالطريقة التى وصفتها - على حيوية أحاسيسهم فإننا قد ننجح فى ربط العمل بالمشاعر بل قد ننجح حتى فى ربط الواقع بالمثل والقيم . ولن تكون المثالية بعد هذا هروبا من الواقع ، بل ستكون استجابة إنسانية بسيطة للواقع" .
(Read, 1958:302)

٨- نظرية النمو الإبداعي والعقلي : Child art as Creative and Mental Growth

وضع هذه النظرية فيكتور لوفيلد V. Lowenfeld ، وتعتبر هذه النظرية أن الفنون مرتبطة بذاتية الطفل . وأن هذه الفنون الهامة وذاتية، ومعبرة عن ذات الطفل، وتحقق له التواصل مع الآخرين . فالخطوط أو الفراغ ، والضوء،

والظل ، تعكس قيما عاطفية، وترتبط بين مشاعر الطفل وتفكيره وإدراكه وتحقق بذلك النمو الإبداعي والعقلي .

وقد عرف لونغفيلد الإبداع بأنه ينطوى على عدة مقدرات هي : الحساسية نحو المشكلات ، والطلاقة، والمرونة، والأصالة والتحليل، والتركيب والتماسك. وأن الحساسية تؤثر على الإبداع من خلال الخواص التالية :

١- الحساسية الفكرية Intellectual Sensitivity .

٢- الحساسية الإدراكية Perceptual Sensitivity .

٣- الحساسية الاجتماعية والعاطفية Social and Emotional Sensitivity .

٤- الحساسية الجمالية Aesthetic Sensitivity .

ويرى لونغفيلد أن رسوم الأطفال تمر بست مراحل مرتبة على النحو التالي:

١-مرحلة الخربشة Scribbling (من عامين إلى أربعة أعوام) وتنقسم إلى ثلاثة مراحل فرعية وهي :

أ- الخربشة غير المنظمة Disorganized .

ب- الخربشة المنتظمة Controlled .

ج- الرموز المسماة Named .

٢-مرحل ما قبل الإيجاز الشكلي (٤-٧ أعوام) Preschematic Stage .

٣-مرحلة الإيجاز الشكلي (٧-٩ أعوام) Schematic Stage .

٤-سن العصبية (بزوغ الواقعية ٩-١٢ عاما) The gang age .

٥-مرحلة التفكير (١٢-١٤ عاما) The age of reasoning .

٦-مرحلة المراهقة (١٤-١٧ عاما) Adolescence .

ويرى لونغفيلد ... "إن الفن يشبع حاجات حيوية لدى الطفل، فهو يتيح له فرصة أن (أ) يرسم، وأن (ب) بصور البيئة التي يعرفها وأن (ج) يعبر عن أفكاره وأن (د) يوضح العلاقات بين الأشياء والناس، وأن (هـ) يعبر عن نفسه بطريقة مفهومة " (Lowenfeld, 1954:57) .

وتركز نظرية لوفيلد هذه في جانب منها على اتجاهات الأطفال الحسية والبصرية Haptical and Visual بحسب كيفية تلاؤم الطفل مع بيئته المحيطة به، والخبرة (في نظره) لا تعكس هذا التلاؤم ولا تغيره، والنمطان الحسى والبصرى نوعان مختلفان لا يجمع بينهما جامع في مجال التعبير من خلال العمل الفنى، فاهتمام صاحب النمط البصرى يكون منصبا على الجوانب الظاهرية للأشياء، وتحليل تفاصيلها ولا يهتم كثيراً بالجوانب الانفعالية بالنسبة له . فهو يشبه ذلك الذى "ترك في الظلام معتمداً اعتماداً كلياً على خبراته البصرية عن العالم الخارجى" . أما صاحب النمط الحسى فهو يهتم بأحاسيسه ومشاعره، وما حوله من فراغ ويجعل الأشياء صغيرة أو كبيرة حسب قيمتها الانفعالية، وليس حسب قواعد المنظور التى تجعل الأشياء القريبة بالنسبة له أكبر من الأشياء البعيدة . وقد وصفه لوفيلد بقوله، إن له "بصر عادى وطبيعى، لكنه يستخدم عينيه فقط عندما يكون مجبراً على ذلك ، أو مضطراً اضطراراً ، فهو يتصرف كما يتصرف الشخص الفاقد للبصر الذى يعتمد اعتماداً كاملاً على حاسة اللمس ، وعلى شعوره الجسدى" . (Lowenfeld, 1957: 58)

٩- نظرية الإدراك الكلى والمفهوم البصرى :

Gestalt Perception and Visual Conception

وضع هذه النظرية كل من شيفر سيميرن Simmern-Schaefer وردولف أرنهيم Rudolf Arnheim وهما يؤمنان بالفكرة التى تقول إن الفن مفهوم بصرى Visual Concept وليس تجريداً فكرياً محسوباً . فالنشاط الفنى نشاط يكون شيئاً بصرياً كلياً مبدعاً ، يقول شيفر : "يمكن التفرقة بين العمل الفنى التشكيلى من أى عمل تصويرى آخر بالعلاقة الوظيفية بين أجزائه . فالعمل الفنى التشكيلى نشاط عقلى تلقائى، وهو استيعاب عقلى، وتحويل الخبرة الحسية إلى كيان جديد مبتكر، وهذا الشئ الذى يسمى بالشكل الفنى هو لغة الفنان التى يعبر بها عن أفكاره بصرياً وفنياً، إنه الشكل الذى يحقق خبرة محددة بوصفها خبرة فنية، وأنه يوضح الوعى الفنى للشخص الذى ابتكره" . (Shaefer, 1948: 8)

وقد ذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن فهم وتطوير البصر المجرد Pure Vision أو الإدراك البصرى Visual Conceiving بوصفه عاملاً يحقق التوازن فى التعبير الفنى، قد يؤثر على علاقات الفنان الانسجامية مع نفسه،

ومع البيئة المحيطة به، ومع المجتمع ، يقول أرنهيم : "إن حركة أسارير الوجه من مكونات النشاط البدني وهي تعكس بطريقة تلقائية طبيعة الشخصية، كما تعكس أيضاً خبرة معينة تحدث في لحظة محددة- وأن حركات الشخص توضح ما إذا كان ذلك الشخص حازماً ، أو ضعيفاً ، أو واقعاً من نفسه ، أو خجولاً. وفي ذات الوقت فإن سلوكه البدني يكشف ما إذا مهتما بموضوع ما، أو كان متضايقاً ، أو سعيداً ، أو حزيناً في تلك الدقيقة بعينها". (Amheim, 1954: 13)

وأخيراً فهذه النظرية ترى أن التوازن مهم جداً، وأن التكوين في الفن Composition ينمي الصحة العقلية بإبعاد الحيرة، والتشتت، وأن الانسجام يبدو في الفن، وبوساطة الفن .

١٠- نظرية الرمزية والنموذج : Child art as Symbol and Archetype

وضعت هذه النظرية رودا كيلوغ Rhoda Kellog ، وسيونويد روبرتسون Seonaid Robertson . وترى هذه النظرية أن الفن رمزي بطبيعته، ولذلك فإنه عالمي. وأن العمل الفني يلقي الضوء على صور رمزية ونفسية . وأن عملية إبداع العمل الفني تصاحبها أحاسيس بالنظام الجمالي . وإن هذا ينسحب على فنون الأطفال وعلى فنون الكبار أيضاً . يقول روبرتسون "لقد أعاد المصورون أخيراً إلى الخامات قوتها الإيجابية ... فالخامة يمكن أن تكون المصدر الأصلي للصورة" .

وقد عرضت رودا كيلوج لمعظم أفكارها في هذا الصدد في كتابها الشهير Analyzing Children's (1965) . ويصف هذا الكتاب على حد قول مؤلفته "التطور العقلي Mental Development للأطفال . ذلك التطور الذي يحدث عندما يمارسون النشاط الفني . فقصّة التطور لدى الأطفال تبدأ منذ بلوغ الطفل أربعاً وعشرين شهراً بالخربشة التي يعدها كثير من الكبار أنها لا تحمل أي معنى من المعاني ، وأنها نتائج للنشاط العضلي فقط، وتستمر قصة التطور عند أطفال الثامنة الذين يعد الناس فنونهم محاولات مضنية جاهدة لتصوير ما حولهم من أشياء . (Kellog, 1965:1)

وقد بذلت الباحثة مجهوداً مضنياً في كتابها، فقد جمعت نصف مليون عمل من أعمال الأطفال ، وتابعت التطور الفني للأطفال من سن الثانية وحتى سن الثامنة . وعرفت ، وصنفت الأشكال المعتادة من فنون الأطفال من سائر

أرجاء العالم . وقد تناولت موضوع الرؤية وأهميتها ، فالرؤية تتم بالعيون ...
والذى تفعله العيون هو أنها تغذى العقل بالمعلومات التى يتم تشفيرها إلى
نشاط عصبى" . (Gregory, 1966:7)

وناقشت بعدها موضوع الخربشة الأساسية Basic Scribbles ووصفتها
بأنها عشرون نوعاً من العالقات ، وأن الذين ينتجونها هم أطفال السنتين، أو
الذين تقل أعمارهم عن السنتين . وبعد أن أوضحتها بالرسوم وحددت أسماءها
انتقلت إلى الخربشات الأساسية واتبعها بالوحدات الزخرفية، ثم أوضحت بعد
ذلك الطريقة التى يبدأ بها ظهور الأشكال وتكوينها لدى الأطفال . ثم ناقشت
الأشكال بنفسها وتوصلت إلى أنها تكون محددة بستة أشكال أساسية .

وقد تتبعت المؤلفة طريقة جمع الأشكال إلى بعضها فى "تركيبات أو
تجميعات" The Combines وهو مصطلح قد ابتكرته هى، وتعنى به جمع
شكلين أو إدماجهما معاً ، أما جمع ثلاثة أشكال أو أكثر معاً فقد أطلقت عليه
مصطلح "كليات أو إجماليات" The Aggregates ، ومن بين هذه الإجماليات
الأشكال الدائرية التى اختارت لها اسم الماندالا Mandala. وهو اسم باللغة
السانسكريتية Sanskrit أطلق على الدائرة التى تظهر مرسومة على مستطيل
أو مربع ويتفرع من مركزها عدد من الخطوط فى مختلف الاتجاهات، وتعد
بمثابة الأساس لما ينتجه الطفل لاحقاً من تمثيلات رمزية .

وتتبع تطور تلك الأشكال الدائرية ، وكيف يحولها الطفل إلى شكل
الشمس ثم يطورها لاحقاً لإيجاد أشكال مختلفة بإضافة بعض أجزاء أخرى ،
وينتقل بعد ذلك لرسم الإنسان والحيوان والمباني .. وغيرها .

١١- نظرية الاتصال الاجتماعى والثقافى :

Child Art as Social and Cultural Communication

طرحت هذه النظرية جون ماكفى June K. Mcfee (١٩٦٦) بهدف
المساعدة على فهم سلوك الأطفال فى الفن، وإيضاح الفروق والاختلافات فيما
بينهم من حيث السلوك الفنى . وقد أثبتت من خلال تجارب عديدة وتحليلات
لرسوم الأطفال إن هناك اختلافات كبيرة بين رسوم الأطفال . والسبب
الرئيسى لهذه الاختلافات يعود كما ترى ماكفى إلى كيفية ودرجة الاستجابة مع
بيئاتهم التى يعيشون فيها، فالأطفال عادة ما يتجاوبون مع بيئاتهم، وتكون
الأفكار التى يعبرون عنها فى رسوماتهم نابعة من تجاربهم مع هذه البيئات،

وفى المراحل الأولى من حياة الطفل نجده يعتمد اعتمادا كبيرا على البيئة، فيصور كل تجاربه فيها .

وتوضح هذه النظرية الطريقة التى تتم بها عملية الإدراك لدى الطفل، كما تدرس طبيعة الإدراك لديهم، والطرق التى يسلكونها لينظموا ما أدركوه من أشياء، كما توضح الطرق المختلفة التى يتم وفقا لها التواصل بينهم وبين الآخرين لنقل أفكارهم ، وقد أوضحت النظرية أن هناك أربعة عوامل تؤثر فى مستوى فن الطفل ، وهذه العوامل الأربعة هى :

١-مدى استعداد الطفل للتفاعل مع بيئته التى يعيش فيها .

٢-البيئة النفسية Psychological Environment ونعنى بذلك مدى إمكانيات التفاعل، ويعتمد ذلك على الاستعدادات النفسية، والظروف التى تكيف تفاعل الطفل مع بيئته .

٣-مقدرة الطفل على التفاعل مع معطيات بيئته التى يعيش فيها من معلومات بصرية يستقيها بالملاحظة والمعاشاة الدائمة .

٤-درجة مهارة الطفل، ومقدرته على التعبير عن نفسه من خلال الأعمال التى يرسمها مصورا بها بيئته التى يعيش فيها .

تحليل النظريات السابقة :

لقد ظهرت نظريات فنون الأطفال السابقة نتيجة لعدة عوامل . ولعل أهم هذه العوامل هو الجو الثقافى الذى كان يعيش فيه أولئك الذين وضعوا تلك النظريات . فهناك تأثيرات ثقافية عامة تؤثر على المجال التربوى. وواضح تأثير العلوم الإنسانية المختلفة على هذه النظريات . إذ كان لكل واحد من علماء النفس بفروعه المختلفة، وعلم الإنسان أو السلالات (الانثروبولوجيا) وعلم الاجتماع والفلسفة وغيرها أثره الذى لا يخفى على طريقته تفكير وتخطيط هؤلاء المنظرين الذين وضعوا تلك النظريات .

وقد تأثر بعض أصحاب هذه النظريات بمن سبقهم ممن وضعوا نظريات أخرى، ويتضح ذلك جليا من ملاحظة بعض الجوانب الخاصة برسوم الأطفال؛ كموضوع تقسيمها إلى مراحل .

وقد ظهرت كل نظرية نتيجة لعدة عوامل، يتصل بعضها بالبيئة التي نشأت فيها، وبعضها بالثقافة السائدة، وبعضها بالخلفية النظرية الأكاديمية لواقع النظرية، وبغير ذلك من العوامل العديدة، كما ركزت نظرية على جوانب معينة كما ركزت كل نظرية على جوانب معينة وأغفلت جوانب أخرى فافتقرت إلى الرؤية الشاملة المتكاملة، ووصلت إلى حد التضارب والتعارض، ولعل مما ساعد على ذلك التعارض عدة عوامل أخرى منها الأفكار التي يكونها الناس عن الكبار والصغار، وعن الطرق السليمة للتعامل مع الأطفال، ومدى الحرية التي يمنحونها للأطفال أو الحزم والصرامة التي يجب أن يعاملوهم بها في مرحلة الطفولة. ومنها أيضا "التباينات بين حياة الكبار وحياة الصغار، وبين المنطق والعوامل النفسية، وبين الحرية والسيطرة التامة (على سلوك الطفل)، وبين التوجيه الدقيق والتلقائية، ولم يظهر تصور فكري واضح لهذه المشكلات التي ظلت لعصور طويلة بلا حلول" . (Rugg, 1928:35)

ويرى براودي Brody "إن كل النظريات السابقة عن فنون الأطفال يمكن تقسيمها إلى قسمين أساسيين :

١- القسم الأول يعتمد على نظرية المعرفة Cognition .

٢- القسم الثاني ويعتمد على العاطفة والانفعال Emotion. (Broudy, 1977: 18)

وقد لاحظ الباحث أن بعضها يجمع بين القسمين السابقين فيتناول الإدراك والعاطفة معا ، القسمان يقومان على أساسين مختلفين . ويمكن أن يسميا الأساس المعرفي أو المنطقي والاساس النفسى .

والأساس النفسى لفنون الأطفال يهتم اهتماما خاصا بالجوانب التعبيرية الداخلية لكل فرد ، ويشمل ذلك الدوافع، والمشاعر والانفعالات ، والإلهام. فحرية التخيل والتصور الشخصى والتعبير مهمة للغاية وكذلك التوجه الداخلى، والنمو الفردى لمفهوم الجمال فى جانب كبير منه إلهامى عاطفى وهو مفهوم مجازى وخيالى .

أما الأساس العقلى المعرفى أو المنطقى فى فنون الأطفال فيعتبر مظهرا حقيقيا للتعبير عن النشاط العقلى للطفل ، كيف يرى وكيف يدرك الأشكال ويحللها ؟ وكيف يقوم بتنظيمها ومعالجتها والحكم عليها ؟ ومن ثم لا يمكن إغفال ذلك كعوامل محددة للتعبير الفنى لديه .

ولعل مما يؤكد ذلك ما ذهب إليه محمود البسيونى من أن "التخطيط الذى يقوم به الطفل والذى نسميه جوازا "الشخبة" لا يمكن الاقتصار فى النظر فيه على أنه مجرد آثار عابرة للقلَم على الورق . إنه أكثر من ذلك بكثير . إنه بحق باكورة النشاط الإبداعى الذى يزاوله الطفل، بل إنه نشاط له أساس عضلى، فيزيقى، وعقلى ونفسى، وعصبى، وجمالى، وإيداعى، واجتماعى" . (١٩٩١ : ١٢)

وكذلك ما ذهب إليه أوزفالدو Osfaldo من أن "إن القدرات المعرفية تتمحور فى إطار حسي- حركى . والطفل حديث الولادة يتعرف على البيئة الخارجية وينمى عناصر الذكاء باللجوء إلى السلوك الحركى والأنشطة الإدراكية" . (١٩٩٧ : ٥)

وفى معرض التأكيد على الجانب الاجتماعى فى رسوم الأطفال ذهب بعض الباحثين إلى أنه "يمكن أن تعتبر رسوم الأطفال لغة تعبيرية، أى كوسيلة اتصال بالغير فعن طريق هذه الرسوم ينقل الطفل خبرته إلى الرأى الذى يستطيع بدوره أن يقرأ من خلال هذه الرسوم تلك الخبرة، ويتفاعل مع الطفل.. فرسوم الأطفال تعنى نقل المعانى والقدرة على الاتصال بالآخرين" . (اللبابيدى والخلاية ١٩٩٢ : ٢٣) . ويتشابه النص السابق مع النص التالى الذى يقول: "فالطفل منذ ... اللحظة الأولى التى يتناول فيها قلماً أو أداة يحدث بها خدشاً على أى سطح له ، فإنه يخطط ويعبر عن ذاته بهذه الخطوط وهذه الخدوش حتى لو كانت هذه الخطوط والخدوش فى بدايتها عشوائية فإنها دلالة من دلالات المخاطبة البصرية عنده يحاول عن طريقها ان يصل نفسه بالعالم من حوله. وهى لها مسبباتها ودلالاتها عنده على الرغم من أنها تبدو لنا نحن الكبار كنوع من الشخبة العشوائية" . (نبيل الحسينى، ١٩٩٧ : ٩)

ولعله مما يلاحظ على بعض ما سبق عرضه من نظريات أنها تفتقر إلى التحقق والدراسة الكافية ، وتشير رودا كيلوج فى هذا الصدد إلى "أن النظرية التى لا تدعمها التجربة لا يمكن فهمها حتى بوصفها مجرد نظرية ... وكثير من نظريات فنون الأطفال مبنية على تجارب قليلة جداً ، ويبدو إن بعضها لم يكن مبنياً على أى نوع من التجارب" (Kellog, 1965: 169, 226) وعندما يأتى هذا الرأى من باحثة ظلت تمارس البحث الميدانى فى مجال رسوم الأطفال منذ عام ١٩٢٨، فإنه يجب أن يحظى بالاعتبار والتأمل ، لأنه لا يفتقر إلى الدراسة والبرهان .

الاتجاهات المستقبلية لأبحاث فنون الأطفال :

لكى يكون ما نتوقع وما سوف يحدث فى المستقبل فى مجال رسوم الأطفال ونظرياتها سليماً، لابد من تتبع التطورات التى مرت بها، فقد بدأ الاهتمام بفنون الأطفال منذ عصر رومو ومن تتبعه من علماء . وكانت البداية بأن دعوا إلى ضرورة التعرف على الطفل، وعلى احتياجاته البدنية والنفسية لتعامل آخر يختلف عن تعامل الراشدين . وأوضحوا خطأ المفهوم الذى كان سائداً وقتها من أن الطفل "راشد صغير" . وبمرور الزمن ظهر هناك تعاطف خاص مع فنون الطفل وأصبحت تعد فنا قائماً بذاته، وتطبق عليه كل شروط ومواصفات العمل الإبداعي الذى ينتجه الفنانون المبدعون الكبار .

وبتطور علم النفس ظهرت النظريات التى تحدد مراحل النمو والسلوك المتوقع فى كل مرحلة عمرية، وأثار ذلك على الفن. وتدخلت العلوم الأخرى وتضافرت لتنتج نظريات مبنية على أسس علمية جعلت رسوم الأطفال ميداناً بحثياً واسعاً يمكن تطبيق أدق المقاييس العلمية عليه .

ونلاحظ فى عصرنا الحاضر ترابط العلوم كلها ترابطاً وثيقاً وتداخلها . وقد أصبحت أغلب الدراسات البينية المتداخلة والتكاملية Interdisciplinary Studies مصطلحاً شائعاً فى كل الأوساط العلمية . وخاصة فى المجالات التربوية وبما أن التربية الفنية تربط بطبيعتها مجالات التربية ، والفن فإن البحث فيها وفى مواضيع مثل نظريات فنون الأطفال لابد أن تتجه هذا الاتجاه التكاملى .

وفى هذا الصدد يقول عبد المطلب القريطى (٢٠٠١) "إن كل نظرية بمفردها ربما لا تكون كافية أو مفيدة فى دراسة الظاهرة- أى رسوم الأطفال- ولا سيما إذا ما اتسمت هذه الظاهرة بالتعقد والثراء الذى وإن كان يعنى إمكانية تناولها من زوايا مختلفة، إلا أنه لا يعنى بالضرورة استحالة تناولها من منظور تكاملى يرقى إلى مستوى ثراء الظاهرة، ويضع فى حسبانها ما تتطلبه عليه من تعقد ودلالات" كما يستطرد قائلاً "إن الطفل عندما يرسم شيئاً ما يكون محكوماً بعوامل أكثر من مجرد الواقع الظاهرى للأشياء فى المجال البصرى، ومن مجرد معرفته به، أو مفهومه البصرى عنها، أو مشاعره نحوها، أو ظروف التعلم ونظم التعزيز التى تلقاها، إن رسوم الطفل محكومة بذلك كله، وباستعداداته العقلية، وأسلوبه الإدراكى المعرفى فى تناول

المعلومات البصرية، ومستوى نضجه ومهاراته الحركية، وخبراته السابقة، وتدريبه الإدراكي، والمفاهيم والطرق التي تعلمها، كما أنها محكومة أيضاً بحالته المزاجية الانفعالية، وحاجاته، ومدى ثراء بيئته المرئية، وعوامل ثقافية واجتماعية أخرى كثيرة". (عبد المطلب القريطي، ٢٠٠١: ٤٢)

وعلى هذا فإن الباحث يتوقع أن تنتج الدراسات المستقبلية في مجال نظريات فنون الأطفال نحو الدراسات التكاملية التي تستفيد من مقومات العلوم السابقة من علم نفس، واجتماع، وفلسفة (انثروبولوجيا) وعلوم بيئية.. وغيرها ويتوقع الباحث أن يتغير مفهومنا عن مواضيع مثل الإبداع لدى الأطفال، ومصادر الإلهام، والدوافع نحو الفنون بمعطيات هذه العلوم مجتمعة.

الخلاصة والتوصيات :

تأثرت فنون الأطفال بعدة عوامل : أهمها البيئات التي كانت تحيط بزمان ومكان واضع النظرية، ومنها معطيات العلوم الإنسانية الحديثة مثل علم النفسي (وخاصة النظرية الكلية الجشتاليت)، إضافة إلى علم الإنسان أو السلالات، الانثروبولوجي)، وعلم الاجتماع، والفلسفة الحديثة وتصل الباحث إلى الترتيب الزمني لظهور هذه النظريات. وبالتالي فإن موضوع تتبع الاقتباس أو التأثير يصبح سهلاً على الدارسين. فنظريات فنون الأطفال ظهرت مرتبة - من الناحية التاريخية على النحو التالي :

- ١- النظرية الطبيعية .
- ٢- النظرية الجمالية .
- ٣- النظرية الإبداعية العلمية الاجتماعية .
- ٤- النظرية التحليلية .
- ٥- نظرية التطور العقلي .
- ٦- النظرية الإدراكية .
- ٧- نظرية الحساسية والانسجام .
- ٨- نظرية النمو الإبداعي والعقلي .
- ٩- نظرية الإدراك الكلي .
- ١٠- نظرية الرمزية والنموذج .
- ١١- نظرية الاتصال الاجتماعي والثقافي .

التوصيات :

يوصى الباحث بأن يهتم الدارسون بالإلمام بهذه النظريات ، وأن يولوها ما تستحق من اهتمام ودراسة وتحليل نقدي، والإفادة منها، وتحقيق التكامل فيما بينها، وخاصة تلك التي تميل نحو الاتجاه الفلسفي أو النفسي العميق .

كما يوصى الباحث أيضا بأن تنشر هذه النظريات بعد تبسيطها لتكون في متناول أيدي كل الناس، حتى يستفيد منها الآباء والأمهات، ويستفيد منها المعلمين والمعلمات، وبذلك تتحقق التربية السليمة ، أو التربية عن طريق الفن .

وأخيرا يوصى الباحث بأن تشتمل مقررات كليات المعلمين على هذه النظريات ولا سيما للطلاب المعلمين في التربية الفنية، وحبذا لو درست لكل الطلاب المعلمين حتى وإن لم يكونوا مختصين في تدريس الفنون حيث الفائدة عظيمة وتعود على المجتمع كله بالخير الوفير . لأنها ستفيد أطفالنا - وهم رجال ونساء الغد - والأمل معقود عليهم في البناء والتطوير والتقدم .

قائمة المراجع

أولا : المراجع العربية :

- ١- البسيوني، محمود تحليل رسوم الأطفال، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٨٧ .
- ٢- البسيوني ، محمود رسوم الأطفال قبل المدرسة ، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٩١ م .
- ٣- الحسيني ، نبيل عمق الثقافة في رسوم الأطفال ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٧ م .
- ٤- القريطي ، عبد المطلب أمين مدخل إلى سيكولوجية رسوم الأطفال (ط. ثانية) دار المعارف بمصر ، القاهرة ٢٠٠١ م .
- ٥- اللبابيدي ، عفاف وعبد الكريم الخلايلة تعليم الفن للأطفال، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان ١٩٩٢ م .

- ٦- أوسقالدو وروناتو مبرارى الرسم عند الأطفال، (ترجمة فوزى عيسى وعبد الفتاح حسن)، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩٧م .
- ٧- ديوى ، جون الفن خبرة (ترجمة الدكتور زكريا إبراهيم، ومراجعة الدكتور / زكى نجيب محمود) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣ .
- ٨- زكى ، لطفى محمد نظريات فى السلوك الفنى وتطبيقاتها التربوية ، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٢م .
- ٩- نعيم عطية ذكاء الأطفال من خلال الرسوم ، نسق جديد لاختبار رسم الرجل، دراسة تجريبية (ص٢)، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٣م .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

- 10- Broudy, Harry, On Cognition and Emotions in the Arts. In S. Madeja (ed.) the Arts, Cognition, and Basic Skills. CEMEREL, St. Louis, 1977.
- 11- Cooke, Ebenezer, Art Teaching and Child Nature, Journal of Education, Decembers 1885.
- 12- Dewey John, Democracy and Education, Macmillan Co. New York, 1916.
- 13- Dewey, John. Art as Experience, Milton Balch and Co. New York, 1935.
- 14- Dow, Arthur Wesley, Composition, Doubleday, Doran and company, New York, 1941.
- 15- Goodenough, Florence H., Measurement of Intelligence by Drawings. World book Company, New York, 1926.
- 16- Gregory, R.L, Eye and Brain, Mc Graw – Hill Book company, New York 1966.
- 17- Harris, Dale B., Children's Drawings as Measures of Intellectual Maturity, Harcourt Brace and World inc. New York 1963.

- 18- Horwits, Elinor Lander, A Child's Garden, Washingtonian Books, Washington D.C. 1967.
- 19- Joseph H.Di Leo, Interpreting Children's Drawings, Brunner Masel Publishers, New York, 1983.
- 20- Kellog, Rhoda, Analyzing Children's Art, Mayfield Publishing Company, New York, 1965.
- 21- Lantz Peatrice, Easel Age Scale, Test Bureau, Los Angles California, 1955.
- 22- Lowenfeld, Viktor. Your Child and his Art, a guide for parents. Macmillan, New York, 1954.
- 23- Lowenfeld, Viktor, Creative and Mental Growth. (3rd.ed.) the Macmillan Company, New York, 1957.
- 24- Mc Fee, June King, Preparation for Art, Wordsworth Publishing Company, Inc. Belmont, California, 1966.
- 25- Read, Sir Herbert, Education through Art, (3rdEd.) Pantheon Books, New York, 1958.
- 26- Richardson, Marion, Art and the Child, University of London Press. London, 1948.
- 27- Robertson, Seonoid, Rose Garden and Labyrinth, Rotlege and Kegan limited, London 1963.
- 28- Rousseau, Jean Jacques. Rousseau, his Educational Theories Selected From Emil, Julie, and other Writings, R. Archer and R. Woodbury (eds.), New York. Barons Educational Series, Inc. 1964.
- 29- Rudolph Arnheim, Art and Visual Perception., University of California Press, Berkeley, California 1954.
- 30- Rugg, Harold. and Shumaker, Ann, The Child-Centered School. World Book Company Yonkers on-Hudson, New York. 1928.

- 31- Shaefer- Simmern, Henry. The Unfolding Artistic Activity, University of California Press, Berkeley, 1948.
- 32- Spencer, Herbert, Education, Intellectual, Moral Physical, Appleton and Company, New York 1961.
- 33- Sully, James, Studies of Childhood, Appleton and Company New York 1895.
- 34- Tomlinson, R.R. Children as Artists, King Penguin Books, London 1947.
- 35- Viola, Wilhelm. Child Art. University of London Press, London 1942.
- 36- Witkin, A.B., H.B. Lewis, M. Hertzman, K. Machover, P. Bretnall Meissner, and S. Wapner, Personality Through Perception: An Experimental and Clinical Study. Harper and Brothers, New York 1954.